نابليون والدردنيل

Napoleon and the Dardanelles. By Vernon J. Puryear. University of California Press. 1951.

الأستاذ بورير معروف فى الأوساط التاريخية بمؤلفاته فى التاريخ الدبلوماسى للشرق الوسيط فى خلال القرن ١٩ .

ومؤلفه الجديد — نابليون والدردنيل — بالرغم من تزويده بالوثائق التاريخية التى استمدها من المحفوظات الفرنسية . فمن الصعب أن يجد بسهولة تلك المكانة الملحوظة بين المؤلفات العلمية . ذلك لأن المؤلف قد وجد نفسه بين أكوام الوثائق العديدة مما جعلته فى حيرة عند الاختيار . ولم يوفق فى هضمها كما كنا نرجو . فضلا عن أنه لم يتصل اتصالا وثيقاً بالمحفوظات البريطانية ليفيد الفائدة كلها . كذلك نلاحظ أنه لم يستفد من المطبوعات الحديثة للدراسات الهامة التى نشرت فى الأعوام الأخيرة . ولذلك تسربت — عن غير قصد منه — أخطاء كثيرة تناثرت بين سطور الكتاب بدون أن يمحصها فيؤكدها أو يزيلها .

ولذلك جاء كتابه خالياً من التحقيق العلمى . على عكس تلك المنزلة التى اتسم بها كتابه الكبير : إنجلترا وروسيا ومسألة المضايق (١٨٤٤ — ١٨٥٦) .

كل ذلك لسبب قد يبدو لنا وهو أن المؤلف لم يسيطر تماماً على مادة موضوعه سيطرة كاملة . ولذلك يمكن وصف كتابه بأن ليس من إخراج أستاذ من أساتذة التاريخ بل بداية عمل علمى . ومع هذا نستطيع القول بأن الكتاب — قد يكون مهماً كمرشد طيب لمواد الموضوع — الموجودة فى دار محفوظات وزارات الخارجية والبحرية والحربية فى باريز أو لمحفوظات الغرفة التجارية فى مارسيليا . وبعض محفوظات وزارة الخارجية الموجودة فى دار المحفوظات البريطانية .

وقول المؤلف أنه اطلع على المحفوظات التاريخية الموجودة فى فيينا وبيرلين لا يظهر واضحاً على صفحات الكتاب .

* * *

إن مؤلفات الأستاذ بوربير السابقة لهذا الكتاب لتبين تماماً أنه ملم ومتصل اتصالا وثيقاً بالمحفوظات البريطانية فى وزارة الخارجية فى الفترة التالية . ولكن يتضح من بعض ما ورد فى هذا الكتاب أنه استقاها من مراجع ثانوية . . عن نصوص فرنسية لا يوثق كثيراً بدقة صحتها .

كما يتضح أيضاً أن الأستاذ بوربير لم يجهد نفسه للبحث عن الوثائق المتصلة بموضوع كتابه فى المحفوظات الوطنية فى باريز . ونحن نعرف أن فرصة البحث لم تكن ميسرة للمؤرخين فيما قبل عام ١٩٣٩ .

ونلاحظ أن المخطوطات الفرنسية لم تسعف الأستاذ فيما يتصل بمشكلة التمثيل السياسى فى مصر عام ١٨٠٤ . والمعروف أن الجنرال ستوارت لما أخلى الإسكندرية فى ١١ مارس عام ١٨٠٣ خلف وراءه سكرتيره العسكرى ماجور ميسيت كوكيل بريطانى . وبالرغم من تعيين شارلز لوك لملىء المنصب فى سبتمبر عام ١٨٠٣ فإنه بسبب وفاته لم يتقلد المنصب أصلا . ولذلك تعين « ميسيت » فى المنصب .

وكانت الحكومة البريطانية فى موقفها لا تعتبر مصر أكثر من ولاية فى الإمبراطورية التركية . أما إن السلطان سليم بإسناده الولاية المصرية لمحمد على فى منتصف عام ١٨٠٥ . كان بمثابة تنازل عن السيادة التركية نهائياً للوالى — فهذا خطأ فى تقدير الأستاذ بوربير للأحوال السياسية فى مصر .

وعند ما بحث الأستاذ بوربير عداء نابليون لإنجلترا نسب إلى عبقرية القائد الفذ حسن تقديره للسيادة التى تنسب للقوة البحرية . والواقع أنه فى ذلك الحين لم يكن القائد الفرنسى قد أدرك بعد قيمة السيادة البحرية . وعند ما تناول الأستاذ موضوع الهجوم البريطانى على كوبنهاجن عام ١٨٠٧ — ثم الاعتداء البريطانى على الإسكندرية عام ١٨٠٧ نجده يكرر تلك الأسباب القديمة للاعتداء . والتى عرض جوهرها الأستاذ المؤرخ محمد شفيق غربال فى كتابه المعروف —

« بداية المسألة المصرية وظهور محمد على » . فقد أوضح المؤرخ فى فصول كتابه أن الاحتلال الإنجليزى كان خطة دبرت عدتها قبل إقدام الأسطول البريطانى على دخول الدردنيل . ولم يكن مشروع احتلال الإسكندرية عملا انتقامياً أعد على عجل أو رداً على انسحاب جاء فى أثره ضياع هيبتها .

ولا شك أن أسباب مثل تلك الأخطاء وغيرها فى تقدير الأستاذ بورييز جاءت عن طريق المصادر التى رجع إليها المؤلف . ولم تكن بعض الآراء التى أوردها على أنها حقائق . سوى إشاعات لا أثر لها من الصحة . ومثل ذلك الموضوع الذى تعرض له بورييز كان يمكن جداً أن يكون عملا جليلا يتوج به حياته العلمية وليس مؤلفاً عادياً . هذا وليس يخفى أن المحفوظات التاريخية التركية التى تتصل بمادة الكتاب غير متيسرة فى الوقت الحاضر ولذلك كان الاعتماد على مصادر محدودة . وهذا أمر لا يتفق مع كتابة التاريخ الدبلوماسى .

لقد نشر فى انجلترا وغيرها فى السنوات الأخيرة — مؤلفات تاريخية متصلة ببلدان الليفانت فى خلال القرن ١٩ لم يستفد منها الأستاذ بورييز — وواضح من الفصل الذى عقده المؤلف للمراجع وما جاء فى هوامش الكتاب من مصادر وتعليقات أنه (المؤلف) لم يعن العناية اللازمة ببحوث الأستاذ شفيق غربال التى أوردها فى كتابه — كما أن المؤلف أتى بخلاصة طيبة للنظم الحاكمة فى تركيا . ولكنه أغفل ذلك المؤلف النفيس الذى تعاون على تأليفه جيب وبراون وهو :

Islamic Society and the West"

ونرى أن هناك مجالا فسيحا لدراسات مسهبة للمشاكل المتصلة بالدردنيل ولكن نعتقد أن تلك الدراسات لا تجىء وافية إلا إذا استخدمت المصادر الأصيلة الأخرى التى لم يعن بها بورييز — تلك المصادر التى يستطيع بجدارة أن ينتفع منها أولئك المتضلعون فى اللغتين العربية والتركية .

ومع ذلك فإن الكتاب يعتبر مؤلفاً مفيداً لهؤلاء الذين يريدون أن يوفروا على أنفسهم مراجعة المحفوظات التاريخية الفرنسية — المتصلة بموضوع الكتاب : نابليون والدردنيل.

جيمس أوخونى وترجمة عبد الرحمن زكى